بوادر ظهور النظام الأسري الأمومي في المجتمع التاسيلي وعلاقته بظاهرة جمع القوت خلال المرحلة البوفيدية من خلال مشاهد الرسم الصخري

د. حسيبة صفريون

معهد الآثار، جامعة الجزائر 2، الجزائر

ملخص:

عرف المجتمع التاسيلي خلال مرحلة ما قبل التاريخ تعاقب للمجموعات البشرية على المنطقة تكون قد تباينت من حيث تركيبتها الاجتماعية و الاقتصادية فخلال البلايستوسان كانت هته المجموعات تعتمد على القنص و القطف لكن أثناء مرحلة الهلوسان سوف تتحول تدريجيا إلى الرعي و يصير هؤلاء رعاة للبقر في المرحلة الرطبة ثم رعاة للغنم و الماعز مع ظهور الجفاف، كل هذه الأحداث سنراها مدونة من خلال الآلاف من المشاهد الصخرية التي تركها لنا فنان التاسيلي و التي جاءت لتسرد لنا فصول حكايته مع الزمن و خلال دراستنا لتلك الصور الرائعة لمشاهد القنص و الحرب و الواجهات الدامية و الجزارة و غيرها كنا نعتقد أن مثل هته المشاهد سوف ترتبط مباشرة بجنس الذكر لكن سرعان ما تبخر هذا الاعتقاد عندما وجناها تقترن كذلك بجنس الأنثى ما جعلنا نتساءل بحيرة شديدة عن دورها الاجتماعي و الاقتصادي و السياسي ،هو سؤال كنا قد طارحناه خلال معالجتنا لرسالة الدكتوراه سنحاول الإجابة عليه :هل

يمكن لبوادر الأسرة الأمومية أن تكون قد ظهرت خلال المرحلة البوفيدية في التاسيلي معقل الطوارق أو الأموهاق الحاليون؟

الكلمات المفتاحية: الأسرة الامومية؛ المرحلة البوفيدية؛ التقسيم الاجتماعي؛ الرسم الصخري.

Abstact **:**

During the prehistoric period, the Tassili area knew a succession of many human groups, which are different on the socio-economic level, during the Pleistocene, a society exclusively based on hunting and gathering, during the Holocene, hunters - Gatherers will be gradually replaced by human groups practicing pastoralism and domestication of cattle in wet phases, and sheep and goats at the beginning of arid phases.

All these activities and more are depicted by the artist in the Tassili through his mobile and rock art, as if he has the intention to tell us his story, studying this artistic heritage and especially the rock scenes from the first time, we imagine that most of activities and rituals related to blood; Hunting, butchery, war and confrontations are devoted to men not to women, the deep examination using a new working methodology, shows that these blood-related practices are not exclusively macho (masculine), but to the woman also. This phenomena leads to the question about the position and role of women in the prehistoric societies in the Tassili. Did she practice the games of power and politics? And is the current Tuareg matriarchal society not a continuity of these traditions from the Bovidian period? So a new vision on the Saharan social dichotomy.

Keywords: The mommy family; the Bovidian period; the social division; the rock painting.

يقطن طوارق الآزجر اليوم **بالتاسيلي- ناجر** وهو عبارة عن هضبة يتراوح ارتفاعها بين 1200 و 1500 م. بعرض يتفاوت بين 100 إلى 150 كم، بينما تصل أقصى نقطة ارتفاع فيه إلى 2254م. وهي **جبل "نيـــسـر".**

نحو الجنوب، انطلاقا من **أمقيد** حتى **جانت**، الكتلة الجبلية للهضبة تتشكل كحائط حقيقي منحدر جدا ويسيطر وراءه على أرض منبطحة وكأنها سهل يمتد لمسافة بين 500 و700م، ويكون هؤلاء قد عمروا المكان منذ أكثر من عشرة آلاف سنة ليظهر مجتمعهم الحالي وقد احتفظ بنظام أسري قديم جدا ربما تعود بوادره لتلك الحقبة وهو الأمر الذي سنحاول التعرف عليه من خلال مجموعة من الرسوم الصخرية الرائعة.

إن المناطق التي توجد فيها الرسوم والتي تمت دراستها تقع ضمن المجموعة الموجودة في المنطقة الأكثر جاذبية في الكتلة الجبلية المركزية، فالتعرية الريحية قد نحتت قواعد الصخور معطية ما يعرف بـ «التافوني"، هناك ملاجئ صخرية متفاوتة الأحجام، هي أحيانا من الضخامة ما يجعلها تحمل خصائص المغارة ويعود لها كل الفضل في الحفاظ على تلك الرسوم و لآلاف السنين[1].



صورة.1-تكوينات التافوني بين صفار وتامريت

ظهرت الثقافة البوفيدية أو الرعوية في منتصف الألفية السابعة قبل الحالي، و كان مازال هناك صيادي "**الكبش البربري**" لكن مربي الأبقار والقطعان الصغيرة كانوا يمثلون الأغلبية الساحقة، في الأول سكنوا المرتفعات الجبلية وبعد فترة جفاف قاسية رجع الرطب لهذه المنطقة فجعل الرعاة يسكنون المناطق المنخفضة مع قطعان أبقارهم، بينما يرعون قطعان الماشية

من الماعز و الأغنام في المرتفعات و بعد فترة جفاف أخرى سنرى الرعاة و قد رجعوا إلى المرتفعات مرة أخرى و جعلوا يحتلونها بصفة دائمة و خلال كل هذه المرحلة و التي قد تتعدى مدتها أكثر من ثلاثة آلاف سنة سنرى المرأة في هذا المجتمع الرعوي وقد لعبت دورا هاما، فمن خلال قراءتنا للمشاهد الصخرية سنلاحظ نشاطها الاقتصادي الذي سيعادل ذلك الذي يقوم به الذكر أو ربما يضاهيه.

يقول الباحث **تستار**[2]: إن توزيع المهام بين الجنسين، في الغالب يتبع نفس القاعدة و هي:

أنه وفي كل المجتمعات التقليدية: كل ما يتعلق بتسييح الدم والقتل يقوم به الذكر، أي القنص والحرب، القرابين بالدماء و الجراحة... الخ، هذه القاعدة حسب **تستار** تنطبق على جميع المجتمعات التي تعود إلى فئة القناصيين- القاطفين مهما تكن الثقافة التي انحدروا منها (؟!) لقد وجد ذات الباحث في هذه المجتمعات بأن المرأة أو الأنثى في أوربا غالبا ما تخرج بدورها في رحلات القنص والصيد دون سلاح وذلك لمساعدة الذكر كأن تقوم بخنق الحيوانات بين الأشجار بالدخان، أو وضع الشبابيك للتربص بها، أي القضاء على الفريسة دون أن يسيل دمها، لكن في المجتمع التاسيلي رأينا العكس تماما فالأنثى كانت قد مارست القنص و الصيد المائي وفنون القتال و الحرب و المواجهة، كما مارست الجزارة و تقطيع الفريسة و كل الوظائف المتعلقة بسفك الدماء، في المقابل وفي المجتمعات الأخرى، سنرى بأن إبعاد السلاح عن المرأة سيخرجها من دائرة العنف، الحروب والمواجهات العنيفة، كما سيخرجها كذلك من دائرة الحكم السياسي. (إذن هي خارج دائرة:الاستشارة، إعطاء القرارات، تنفيذها) ولن تصل إليها مثل هذه الأمور إلا بالصدفة، كوراثة أو تعويض الذكر. كذلك قد تصل إلى مثل هذه الأمور بواسطة التأثير على قرارات الذكر، كما أنه وخلال الطقوس الدينية عادة يقوم إبعادها عن مسرح الدم، هكذا يقول **تستار**، لكن و في حالة المجتمع البوفيدي سنرى العكس تماما، و هذا ما يخول لمثل هذه الأنثى أن تعرف لعبة السياسة والحكم و ربما هي من صنعتهما و هي لحد تاريخ ليس ببعيد كانت الحاكم في أسرتها و ربما في مجتمعها(؟ !). كما أنها تكون قد شاركت في الطقوس الدينية العقائدية كما شاهدناها مع الثور، يقول **تستار**: إنه لا يمكن اعتبارا أبدا صورة كبيرة أو جميلة أو أنيقة لامرأة أو أنثى ما – مثلا في أحد الفنون الصخرية - دليلا قاطعا لانتساب أو

انساب مجتمع بكامله إلى الأسرة الأمومية، فوجود تلك اللوحات الإشهارية للنساء اليوم، هل يمكنها أن نعتبر بواسطتها المجتمع الحالي أمومي[3] ؟!



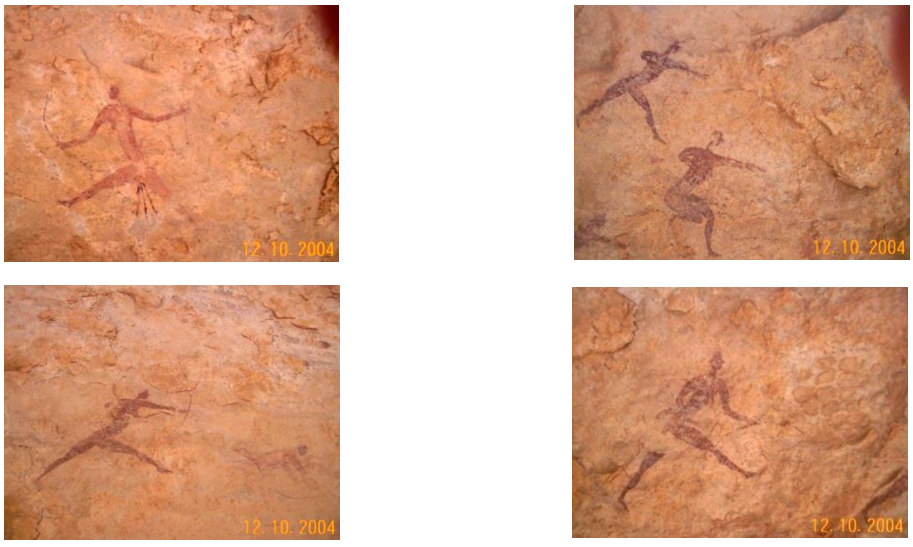
صورة.2-قناصة صفار تحمل القوس و السهم



صورة.3-محاربات تين تزاريفت في قارب و في حالة المواجهة



صورة4-زوجان يحملان شباك لصيد الأسماك



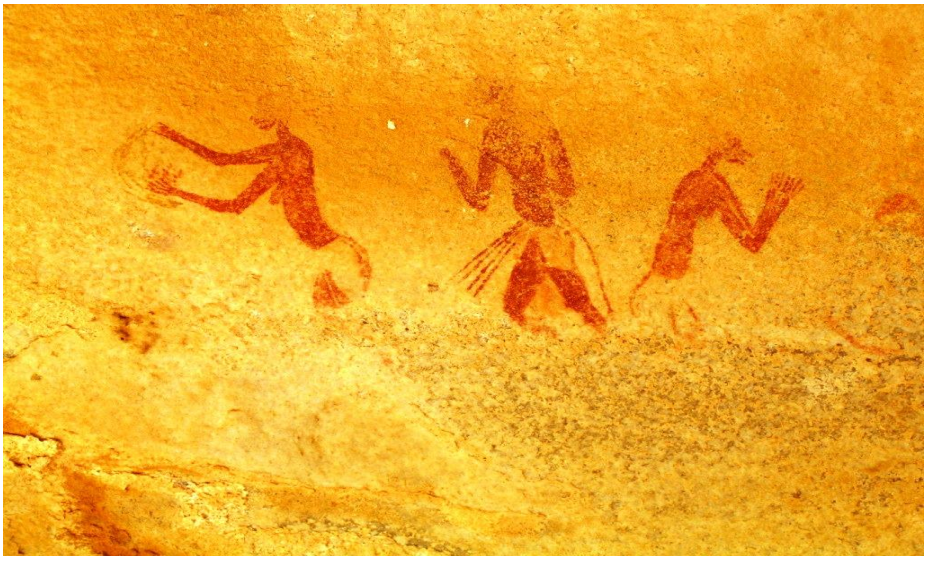
صور5- محاربات صفار أثناء المواجهة

هل يمكن أن يكون المجتمع الطرقى الأمومى وليد المجتمع البوفيدي ؟

يقول تستار:

غالبا يعرف الذكر بالصيد أو القنص، بينما الأنثى بالقطف وجمع الأعشاب.

بالنسبة للأعشاب (أعشاب برية، درنات... الخ) هذه الأخيرة قد تمثل و عكس ما كنا نعتقد حوالي 50% من غذاء أو التركيبة الغذائية لمثل هذه المجتمعات، فقد شاهدنا المرأة في التاسيلي و في أكثر من مشهد و هي تعكف على جمع الأعشاب و تذرية الحبوب و ربما تبحث عن الدرنات و تقطف الفواكه و ما عثرنا عليه في تلك المواقع مثل **تين هنكاتن** من بدور **الثيوم** و حبوب الدخن في **دهر تشيت بموريتانيا** أو في **منيات بالأهقار**، وهو لدليل قاطع على وجود هذه الممارسة كما وجدنا ثقوبا في الصخور نحتها عمدا الإنسان البوفيدي ربما ليقدم فيها القرابين من الحليب و الدم و الحبوب و ربما يلجأ إليها لطحن بعض الحبوب ثم نثرها في الهواء بعد تلاوة الصلاة أو الدعاء كما ذكر **روزى**[4].



صورة.6-قناص رفقة نساء يقمن بقطف الأعشاب ذات الحب



شكل1.0-رفع لمشهد قاطفات بجبارن (الرفع أنجز من طرف الزوجان أوارد)[5]

لقد كانت هاته النساء أحيانا مجبرات على قطع مسافات طويلة (قام بحسابها بعض المختصين) وهي تضاهي وبكثير تلك المسافات التي يقطعها الذكور بحثا عن الطريدة، كما كانت هذه الإناث تخرج أحيانا رفقة صغارها، لكن عند المجتمعات التي يكون فيها القنص و القطف على نفس الدرجة من الأهمية، مثل عند مجموعة سان **San بصحاري كلهاري** فإن اقتسام المهام يتوافق تماما مع الاقتسام بينها في الغلة من الحيوان والنبات. (الذكور و الإناث)



صورة.7-خرجه نسويه للصيد و القطف بجبارن، إحداهن تحمل القسم السفلي لطريدة رباعية الأرجل (تلك الموجودة على أقصى اليسار في الأعلى)

فإلى جانب **القنص و الصيد** ستشارك الأنثى في أمور **الرعي** و العناية بالقطيع، لقد اشتغلت بأمور **رعى القطيع و حراسته و العناية** به، و **جمع الحليب و معالجته و تخزينه** كما **جمعت الحبوب و الأعشاب البرية و خزنتها في جرار وأواني** من الفخار كانت قد صنعتها و كذلك **السلال و الحبال و عالجت الجلود** و خاطت اللباس، كانت **تطبخ الطعام** و تصنع ربما **الشراب**، كما **صنعت الخيمة و أقامتها و أفرشتها**، كانت تصنع **الأسرة بالولادة و تربية** الأطفال و العناية بهم و ببيتها و يبدو بأن الذكر كان يشاركها في العناية و الاهتمام بأطفاله كذلك، شاركت الذكر في **الطقوس و الاحتفالات الاجتماعية و الدينية، رقصت، عزفت، غنت** و ربما شاركت في **تقديم القرابين**، حسب **كوهين** : "هناك أهمية كبرى للنشاطات الإنتاجية والحرفية للإناث أو النساء في هده المرحلة" و يقول **نوجييه**:" إن تلك الأزمة التي تبعت الاعتدال المناخي في أوربا أدت إلى تزايد عدد السكان و تناقص الطريدة ما استدعى الأمر إلى تحرير الاقتصاد من تبعية الصيد و الالتفات إلى ما تجود به الأرض من فواكه و درنات و هذا ما جعل المرأة تدخل في دائرة الشقاء بالعمل المضني[6]".

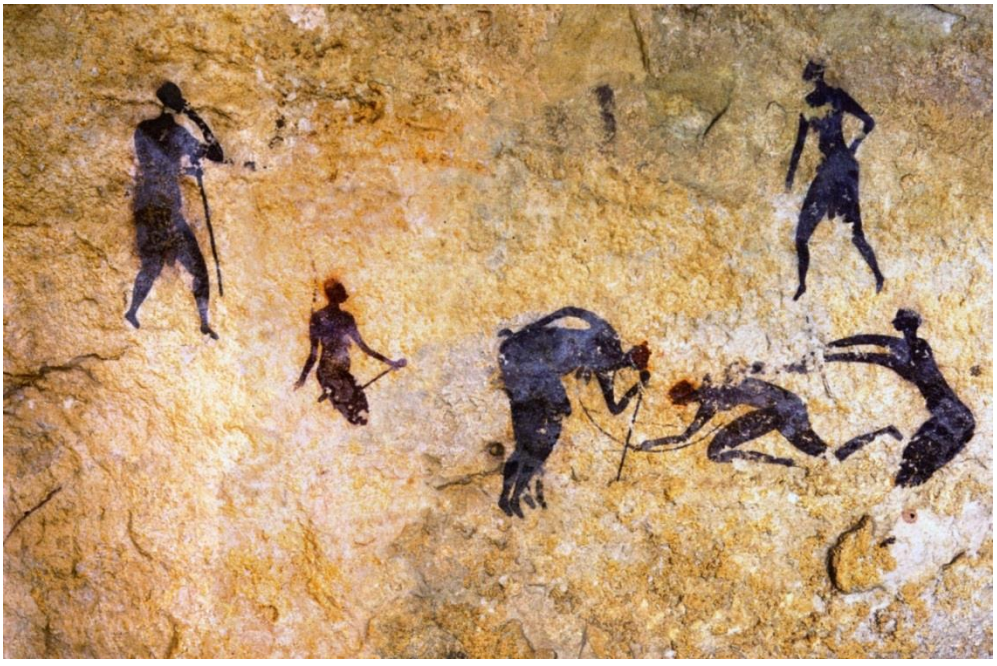
و يضيف باحث آخر: "هناك و في هذه المجتمعات يتم تقسيم المهام حسب الجنس وحسب السن كذلك، وهذا بغرض تحقيق **مجموعة اجتماعية** تتعايش فيما بينها بواسطة تبادل الخدمات.



صورة.8-مشهد القطيع والزائرات بجبارن



صورة.9-معالجة الجلود



صورة.10 -طقوس متعلقة بالأطفال بحضور الجدة المباركة عند البوفيديون

(*Hachid M.* 2000 :186, *Fig.* 266)



صورة.11 -راقصات جبارن وطقوس الثور

أثناء دراستها للتمثيلات الأنثوية في المشاهد الصخرية بموقع **أوزن-اهيرى**، وجدت الباحثة **موسطفاي** بأن المشاهد البشرية المتعلقة بالأنثى لا تتعدى 6% و جاءت تتعلق أساسا بفكرة **التنقل و المسكن و الأطفال** فغالبا نجدها أمام مسكنها أو نجدها منتصبة أو في حالة السكون وهي واقفة و قد انحنى جزءها العلوي نحو الأمام (كما في حالة القطف)، و كذلك في مشاهد المحادثة و هذا ما يوحي بأن الفن في هذا الموقع و ربما كل **التاسيلي** يظهر و كأنه جاء ليصور المرأة "**كربة بيت، دائما**" و هذا ليس صحيحا ففي ذات الموقع وجدت الباحثة مشاهد عدة للمحادثة الحية و الألعاب النسوية و التي تدل على دورها الفعال في المجتمع، فهي تكون قد لعبت دورا فعالا في أن تكون "**المعلمة**" المتخصصة في تعليم النساء شؤون صلاح **الحمل والولادة** و تنشيط الطقوس المتعلقة بحمايتهما[7]، كما جاءت في مشاهد تجسد فكرة **الخصوبة** لقد جاءت مشاهد صورتها في حالة حمل أو مخاض لأكثر من مرة[8].



صورة.12-الحياة الاجتماعية عند نساء التاسيلي أثناء المرحلة الرعوية

من هي المرأة البوفيدية جدة سيدات الطوارق أو التمهاق؟

لقد لعبت المرأة أو الأنثى دورا هاما في الحياة و الثقافة الاجتماعية خلال المرحلة البوفيدية سواء في تلك المرحلة التي عاشت فيها على القنص و القطف، أو في المرحلة الثانية بعد أن ظهر الاستئناس وخلال كل هذه المرحلة جاءت لتظهر في نفس المكانة الاجتماعية التي كان يعرفها الذكر لأنها تكون قد مارست جميع الوظائف مثله، لقد شاركته في جميع الوظائف أو الأعمال المتعلقة بسفك الدماء كالصيد والقنص والجزارة و السلخ وربما حتى تقديم القرابين كما شاركت في المواجهات والحروب وأحيانا تكون قد قادتها بدونه، ولما لا إذا تكون شاركت في اللعبة السياسية إلى جانب الذكر وربما تحكمت فيه؟! وسار تحت إمرتها!

إلى جانب ذلك عرفت جميع الوظائف المتعلقة بجمع القوت و الحرف الخفيفة، اعتنت بالقطيع ، حلبت ماشيتها و جمعت خيراتها و خزنتها وحرست على سلامة ثروتها وقطيعها، وصنعت الفخار والآنية الفخارية التي جمعت فيها الحليب والسوائل و أقلبت نظام الطبخ والتغذية

بالتعرف على المرق والحساء واستغلال الحبوب الجافة والتي لم تكن لتؤكل لولا طبخها في الماء، صنعت السلال والحبال، عالجت الجلود وخاطت اللباس، قطفت الحبوب والأعشاب البرية، وتعرفت خلال تلك الرحلة الطويلة مع النبات الأنواع الصالحة منها للإستطباب، اعتنت بنفسها، بجمالها ومظهرها و جسدها كما اعتنت ببيتها و أسرتها فهي التي تصنع الخيمة و هي التي تقيمها وهي التي تجمع وتصنع الغداء وتخزنه، هي من تربي أولادها و تلقنهم دروس الحياة و التجارب، لقد كانت و بدون ادنى شك المعلم الأول في مجموعتها الاجتماعية فبالإضافة إلى وظائف الذكر، كانت تقوم بجل الوظائف الأخرى ما جعلها تحتل مكانة مرموقة بين مجتمعها حتى أننا نعتقد بأنه و ربما أن جذور المجتمع الطرقي الأمومي تمتد منذ هذه المرحلة إن المجتمع البدوي الطرقي الآن نراه لا يختلف كثيرا عن ذلك الذي كان موجودا في المرحلة البوفيدية المتأخرة فالآلاف السنين الأخيرة كانت المرأة في هذه المنطقة لا تختلف كثيرا عن مثيلاتها اللائي عمرن المكان حتى عشية دق الحضارة الحديثة أبوابها مع حلول المستعمر، و خلال كل هذه الآلاف من السنين كانت هذه المرأة صانعة ذلك المجتمع الطرقي البدوي أو بدوية التمشاق تتمسك بعفتها وشرفها و هذا ما ترجمته رسوم أجدادها على الصخر و هو ربما ما يفسر بقائها متمسكة بتعاليم الإسلام رغم محاولة الاستعمار تظليلها.

تقول الباحثة **سويدة أبوبكرن** و هي تصف دور المرأة اليوم في إدارة الموارد الطبيعية في مجتمع "**كل تمشاق**":

"عند بدو "**كل التمشاق**" تعد المرأة هي مالكة الثقافة و صانعتها في مجتمعها، فهي التي تضمن الوحدة بين أفرادها و هي التي تمنحهم الشرف و هي صاحبة القرار و الكلمة "

المراجع:

1. ***Aboubakrine S.***2011-*Le rôle de la femme nomade Kel Tamachek dans la gestion des ressources naturelles* « *Tamoudre* » *Communication en séance plénière* : 1*er Congrès des Peuples Autochtones Francophones, Agadir* – 2-6 *novembre* 2006

2. ***Allard-Huard, L., Huard P.***(1986) *-La femme au Sahara avant le désert, Le Caire, Éditions et publications des Frères jésuites en Égypte, .p.*32 (*Études scientifiques, septembre-décembre* 1986).

3. ***Gast, M.*** (1995) *–Des graines nourricières qu'on ne boie pas* : *Les confusions de l'agriculture néolithique sahariennes. APMO pp.*252.

4. ***Hachid, M.*** (2000) *- Le Tassili n'Ajjer* : 50 *siècles avant les pyramides. Edif.*2000

5. ***Lhote, H.*** **(**1952) *- Le Tassili n-Ajjer* : *description géographique-physique et principaux groupes de roches peintes, congrès panafricain de préhistoire, Alger p.*69.

6. ***Mostefai, A.*** (2013) *-- les représentations féminines d'Ozan Ehéré* (*Tassili-n-Ajjer, Sahara Central, Algérie*). *Les Cahiers de l'AARS. N°*16, *pp.* 228.

7. ***Nougier, L.-R.*** (199) *- L'histoire mondiale de la femme. Revue belge de philologie et d'histoire Année* 1967 *Volume* 45 *Numéro* 3 *p.* 898

8. 4- ***Roset, J.-P.***(1987) *-Néolithisation, Néolithique et post-Néolithique au Niger nord-oriental . In*: *Bulletin de l'Association française pour l'étude du quaternaire - Volume* 24 *Numéro* 4 *- . pp.* 203-214

9. ***Testart,A*** .(1982)*- Les chasseurs-cueilleurs ou l'origine des inégalités, Nanterre-Paris X, Société d'ethnographie. P.*27

10. صفريون،ح.2015-كيف كانت البربريات تلدن مند سبعة آلاف سنة،مجلة آثار،عدد.13.ص.16-26

11. صفريون.ح.2017-الثقافة الاجتماعية ودور المرأة من خلال الرسم الصخري النيوليتي أثناء المرحلة البوفديدية (مثال:هضبة التاسيلي ناجر).ص.245

الهوامش:

[1] *Lhote, H.* (1952) - *Le Tassili n-Ajjer : description géographique- physique et principaux groupes de roches peintes, congrès panafricain de préhistoire, Alger p.*69.

[2] *Testart,A.*(1982)- *Les chasseurs-cueilleurs ou l'origine des inégalités, Nanterre-Paris X, Société d'ethnographie. P.*27

[3] صفريون.ح.2017-الثقافة الاجتماعية و دور المرأة من خلال الرسم الصخري النيوليتي أثناء المرحلة البوفديدية (مثال:هضبة التاسيلي ناجر).أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه ،ص.245

[4] ***Roset, J.-P.***(1987) *-Néolithisation, Néolithique et post-Néolithique au Niger nord-oriental . In*: *Bulletin de l'Association française pour l'étude du quaternaire - Volume* 24 *Numéro* 4 - . *pp.* 203-214

[5] *Allard-Huard, L., Huard P.*(1986) *-La femme au Sahara avant le désert, Le Caire, Éditions et publications des Frères jésuites en Égypte, .p.*32 (*Études scientifiques, septembre-décembre* 1986).

[6] *Nougier, L.-R.* (199) - *L'histoire mondiale de la femme. Revue belge de philologie et d'histoire Année* 1967 *Volume* 45 *Numéro* 3 *p.* 898

[7] *Mostefai, A.* (2013) -- *les représentations féminines d'Ozan Ehéré* (*Tassili-n-Ajjer, Sahara Central, Algérie*). *Les Cahiers de l'AARS. N°*16, *pp.* 228

[8] صفريون،ح.2015-كيف كانت البربريات تلدن مند سبعة آلاف سنة،مجلة آثار،عدد.13.ص.16-26